تعقيب

د. ضياء الدين زاهر

أبدأ مداخلتى بتهنئة مركز البحوث والدراسات السياسية لاهتمامه بالموضوع الحيوى الذى هو محور عمل هذه الندوة ، أعنى « اقترابات البحث العلمى فى العلوم الاجتماعية ، واشكر الأستاذة الدكتورة « نازلى معوض » على رئاستها لهذه الجلسة • كما أود بكل صدق ان أهنىء الأساتذة الدكاترة المؤلفين على أوراقهم القيمة التى استفدت منها كثيرا ، والتى تمثل محاولات نقدية جادة يفتقر اليها ميدان المنهجية فى العلم الاجتماعى بعامة ومجال الاقتراب النسقى خاصة • حيث يسود الأخير أدبيات وصفية اقناعية ، مع غياب ملحوظ للأدبيات التقويمية النقدية •

وأود أن أوضح ان تعقيبى سينقسم الى شقين الأول يناقش ملاحظات عامة عكستها الأوراق الثلاثة بدرجات متفاوتة ، والثانى يركز على ملاحظات أكثر تحديدا داخل كل ورقة على حدة ، وننهى تعقيبنا بمحاولة رسم ملامح تصور لاستخدام أفضل لاقتراب النظم فى العلم الاجتماعى فى مصر •

أولا ـ الملاحظات العامة : كشفت الأوراق ، بدرجة أو بأخرى ، عن عدد من الافتراضات أو القناعات المشكوك فيها والشائعة فى استخدام اقتراب النظم والتى من المهم التصدى لتفنيدها ، وفى مقدمتها الافتراض بأن :

(١) اقتراب النظم يستند الى نظرية شاملة : المؤكد انه لا يوجد بناء

معرفى متكامل متميز ، جامع مانع ، مقبول من الجميع وواضح بشكل جلى يمكن أن نطلق عليه اسم نظرية النظم (الانساق) ، رغم ان هناك جوانب نظرية للتفكير النظمى ، قدمها برتا لانفى ثم طورها بشكل جذرى أكوف واشبى ، وبولدنج ، وأبوبورت ، ولانجا ، وكريميانسكى ، وسميرنوف وغيرهم ، حيث أصبحت كل رؤية نظرية عامة ليس الا مستوى معين من البناء النظرى الموضوع لبعض النماذج ، ويقع هذا المستوى موقعا متوسطا بين البنى المفرطة فى العمومية والتى تقدمها علوم الرياضة البحتة والنظريات الخاصة لبعض النظم الخاصة ، لذا ، فنحن نحذر من هذا الادعاء الذى جاء فى بعض الأوراق بطريقة سافرة أو ضمنية ، وفى أدبيات كثيرة سابقة ، بأن للنظم نظرية شاملة أو انها نوع من العلم الأعظم أو انها اطار نهائى للتنبؤ ، فهى ليست أكثر من منهجية للعمل أو استراتيجية فكرية تزودنا بأدوات مفاهيمية تساعد على التعامل مع المشكلات والمواقف المتعددة ، بما يضمن اثارة العديد من التساؤلات المفيدة ، واتاحة اجابات عديدة لها ·

(٢) تحليل النظم هو اقتراب النظم : هذا غير صحيح ، وقد ورد فى كل الأوراق ، فللتفكير النظمى فروع عدة يمكن تعقب نشأتها ، وقد تكون مستقلة وقد تكون متداخلة سواءا نظريا أو مفاهيميا ، أو فى ميدان التطبيق والممارسة الميدانية · ويحدد ثقات المنهجيين الفروع والمناهج الأساسية لاقتراب النظم فى : النظرية العامة للنظم (بشكلها المتطور والكلاسيكى) ، والسيبرناطيقا ، والشمولية (الكلية) ، وبحوث العمليات ، وتحليل النظم، وتصميم النظم ، ونظرية المعلومات ، وهندسة النظم ، وتحليل المخرجات ، والبرمجة الرياضية ، وعلم الحسابات الآلية وعليه ، فان تحليل النظم ليس أكثر من فرع تحليلى ضمن اقتراب النظم · وهو معنى بالتمكين من الوصول الى قرارات أو اختيارات أفضل بشأن المستقبل ·

(٣) اقتراب النظم مرادف للبنائية الوظيفية : هذا ادعاء باطل شكلا وموضوعيا ، فنظرية الأنساق الاجتماعية ، فى الطرح الجديد لها ، عند

ميرتون وبارسونز خاصة ، جاءت بعد التطور النسقي (١٩٥١ في حين نشأة النسق ١٩٢٨ على يد برتا لانفى) فنظرية العمل الاجتماعى عنـــد بارسونز لم تظهر الا بعد أن خضبها برؤيته الاجتماعية المحددة ، فى حين ان اقتراب النظم (أو النسق) ونظريته العامة خاليين تماما من أى توجه اجتماعى ، وانها تكتسيه فقط من مجالات تطبيقها • لذا فهى تطبق فى الاتحاد السوفيتى وتشيكوســلوفاكيا وبولنــدا بحماس شــديد يكاد يفوق مثيله فى الغرب الصناعى • بل ان هناك تطبيقات لاقتراب النظم فى علم الاجتماع فى مجالات تحليل المجموعات الصغيرة (بودرين ١٩٦٩) وأخرى لدراسة مشكلة القيم (بوبوفا) ••• الخ ، استنادا الى ان التحليل العميق للانساق يكشف عن انها ليست بالضرورة كلها أنســاقا وظيفية ، فهى تتنوع حسب المبــادىء التنظيمية وطبقا لتعقد التنظيم الاجتماعى والانســانى • ومن ناحية أخرى نجد ان البنائية الوظيفية الجديدة تتخذ النسق (الوظيفى) اطارا تصوريا له محتوى اجتماعى محدد يقوم على فكرتى التساند والتوازن • وقد أسهمت هذه الطبيعة المفترضة لنظرية الانساق ولاقتراب الانساق الى دراسة جوانب يستحيل على البنــائية الوظيفية دراســتها دون امــلاء توجه اجتماعى ما ، كقضــايا التغير البيئى والاجتمــاعى (راجــع بيرين فى كتــابه عن النظــم الاجتماعية) وقضايا التحول والتغيير فى سلوك الانسان ، والتطور والانهيار ودراسة كافة أنواع المؤثرات البيئية •

(٤) اقتراب النظم هو العصا السحرية لحل كل المشكلات أو « حصان طراودة » للعلم الاجتماعى : وهذا وهم خطير قائم على فهم خاطىء لقدرات وامكانات اقتراب النظــم ، وفهــم أكثر خطــأ لطبيعة الظواهر والمشــكلات الاجتماعية ، فقد يصلح هذا الاقتراب مع مشكلات معينة وهناك فئات أخرى من المشكلات التنظيمية لا تخضع لطرق النظم أو بمعنى آخر ينبغى تعديل هذه الطرق أو تكاملها مع مناهج واقترابات أخرى للتعامل معها •

ثانيا - الملاحظات التفصيلية :

وسوف نناقش هنا كل ورقة على حدة وتظل هذه المناقشة من وجهة نظرنا قابلة للحوار ، ولنبدأ حسب ترتيب العرض :

(١) اقتراب تحليل النظم في علم السياسة :

عرضت الدراسة فى اقتدار أحد نماذج التحليل النسقى لدى واحد من أكثر السياسيين شهرة وهو « ايستون » ، وحقيقة كنت أتوقع قبل قراءة الدراسة أن تعالج الأدبيات المتصلة باستخدام اقتراب النظم فى علم السياسة ، كما هو عنوانها ، من وجهة نظر نقدية لكى تساعدنا على ازالة الغموض عن هذا الاقتراب ، نظريا ومفاهيميا وتطبيقيا ، وتوضح الامكانات المتاحة أمامنا للاستفادة من التراكم العلمى فى التجربة الغربية (الرأسمالية والاشتراكية معا) فى استخدام هذا الاقتراب بغية تطوير استخدامه فى بحوثنا ودراساتنا السياسية والمجتمعية · وبدون انتقاص من قيمة هذا العمل العلمى الجاد ، كنت أود تعميق أوجه الاستفادة من نموذج ايستون ، ولا سيما وانه قديم نسبيا ، بشكل أكثر وضوحا وأن تتخذ كمنطلق لفهم أوسع لأساسيات اقتراب النظم السياسية · وقد يقتضى هذا القصور اقتصار عنوان الدراسة على : نموذج ايستون التحليلى فى علم السياسة دراسة نقدية تحليلية وهذا يتطلب بالضرورة تخصيص جزء من المفاهيم الواسعة لاقتراب النظم فى فئاتها الأربع العامة التى رصدها « يونج » (وهى العوامل المنتظمة والوصفية ، التنظيم والصيانة ، الديناميات والتغير ، والتدهور والانهيار) لا سيما وان هناك امكانات لتطويره فى ظل التحولات المذهلة فى ميدان اقترابات النظم وتطبيقاته فى العلم الاجتماعى مما جعل القول بأن نماذج التحليل النسقى محافظة قول مرفوض تماما ، وهذا ينطبق فقط على نموذج ايستون (١٩٦٥) كما قد يكون مفيدا تناول أوجه الاتفاق والاختلاف بينه وبين رواد فى التحليل النظمى السياسى مثل سكوت وكابلان وروزكرنيس وغيرهم ·

(٢) استخدام اقتراب تحليل النظم في الدراسات السياسية في مصر :

الحق انها دراسة فدائية مقتحمة لوضوعها بجسارة تحسد عليها . حيث تناولت فيها الباحثة ما كان ينظر اليه على أنه « تابو » وهو أعمال الزملاء وفق اطار تقويمي يفترض انه موضوعي وهو الأمر الذى سنبحث فى مدى صدقه مع أمور أخرى . ويفترض الجزء الأول من الدراسة مناقشة اقتراب النظم بصفة عامة ، ولكن هذا الافتراض لم يكن دقيقا تماما ، حيث لم يعنى هذا الجزء بتوضيح أسس ومفاهيم الاقتراب ومشتقاته وآلياته كما جاء فى مصادرها الأساسية ، بل تم التعويل مباشرة على أربعة نماذج سياسية بطريقة غير متوازنة هى نماذج ايستون أيضا (النظام السياسى) وكابلان (للنظام الدولى) ومودلسكى وبرتشر (السياسة الخارجية) وقد تبين أن التركيز كان على ايستون وبرتشر بحكم أن معظم رسائل الماجستير والدكتوراه التى قومتها الدراسة فيما بعد ، ولم يتم الاشارة الى ذلك . والملفت ان الباحثة فاتتها الاشارة الى ان نموذج مودلسكى أسس على منهج وظيفى بنائى على نهج بارسونز . وعلى الرغم من ان هذه الملاحظات لا تقلل من قيمة هذا الجزء الا ان تجاهله لأساسيات الاقتراب قد قاد الدراسة الى تناول عام للنماذج السياسية ، كما ان المراجع كانت قبل عام ١٩٨٠ - باستثناء مرجع واحد فقط . أما الجزء أو القسم الثانى ، فقد كان من المتصور أن يركز على استخدام الاقتراب فى الأدبيات السياسية المصرية أو تلك المتصلة بمصر ، على ان الباحثة اقتصرت على رسائل الماجستير والدكتوراه فقط دون ابداء الأسباب ، وقد حرمها هذا من اكتشاف استخدامات بارعة للاقتراب فى دراسات مثل دراسة جميل مطر وعلى الدين هلال : « النظام الاقليمى العربى » ، « والعرب ومستقبل النظام العالمى » لعبد المنعم سعيد . وفى مجمل عرض الباحثة لخطتها المحكمة فى التقويم أوضحت تعريفات للمنهجية والاقتراب ولم توضح العلاقة بينها وامكانات التداخل المحتمل ، كما لم تتعرض لمفاهيم ذات صلة وثيقة فى الموضوع كالطريقة والاجراء والتقنية . كما لم تحدد اجرائيا ماذا تعنى بلغة الاقتراب ولا مفاهيمه أى

مفاهيم تقصد ؟ وعلاقاته · وتجاهلت تقنياته · وفى مضمون التقويم جعلتنا نتساءل : « كيف يمكن الحكم على مدى نجاح أو فشل استخدام الاقتراب النظمى (ص ٢٠) ، كيف يمكن الحكم على مدى اتساع أو ضيق مشكلة بحثية وما معايير ذلك ؟ ، ما معايير الحكم على دقة ائتلاف أو عدم ائتلاف اقتراب النظم مع اقترابات أخرى كالاقتراب البنائى الوظيفى أو السلوكى أو صنع القرار ··· الخ (ص ٢١) ، هل يمكن لنا دراسة ظاهرة ما باستخدام اقتراب النظم دون فحص سياقها التاريخى (ص ٣٦) · هل عندما نطبق نموذج تحليلى أجنبى بحذافيره نصبح قد التزمنا باستخدام اقتراب النظم ؟ (ص ٢٧) » ·

الأهم من هذا كله ان التقويم فى تقديرى كان يحتاج لمزيد من الموضوعية والايضاح والى معايير دقيقة وواسعة ومنظمة والأرجح عندى استخدام منهج تحليل المضمون لتعميقه وزيادة موضوعيته · على ان هذه الملاحظات لا تقلل على الاطلاق من القيمة العلمية لهذه الدراسة الجيدة والجريئة والجديدة فى مجالها ·

(٣) اقتراب التحليل النسقى واستخداماته فى دراسات علم الاجتماع فى مصر :

وهى دراسة جادة مختصرة ، ويحسب لهذه الدراسة انها رجعت الى المصادر الأولى فى حركة النظم عند برتا لانفى مما مكنها من توضيح الأسس والمرتكزات الفلسفية الأساسية لها · ومن هنا جاء « انبهارها الشديد » باقتراب النظم وتقنياته والحماسة لتطبيقه · على ان هذا لا يمنع من الاشارة الى ملاحظات منها اغفال الدراسة للمفاهيم العلمية التى يأخذ بها الاقتراب وخصائصه وطبيعة النسق ، كما لم نجد اشارة واضحة الى تأريخ هذا المفهوم سواء من وجهة نظر علم الاجتماع أو وجهة نظر العام الحديث ، بشكل يبرز امكاناته ، وهذا ما قاد الدراسة لشبه فهم بأن التحليل النسقى لا يختلف عن التحليل البنائى الوظيفى الا باستبدال البنائى بالنسقى على حد تعبير

بارسونز ، وهو الأمر الذى ينفيه رواد اقتراب الانساق وسبقت الاشارة اليه • ولعل هذا الفهم هو الذى قاد الدراسة الحالية لاختيار دراستين لاستخدام اقتراب النسق هما فى الأصل اقتراب نسق وظيفى • ومن المهم الاشارة الى وجود دراسات كاملة عن تطبيق هذا الاقتراب أيضا من المنظور الوظيفى) عن النسق العسكرى لأحمد ابراهيم ، ودراسة أخرى لمحمد عارف عن التحليل الوظيفى للنسق الاجرامى • وثمة ملاحظات شكلية تتصل بلغة الدراسة ذاتها ، مع الكشف عن التداخلات بين تحليل النظم وبحوث العمليات والتخطيط الشبكى ، ونفى امكانية التنبؤ بالاستشراف (علم المستقبل) ولعل هذه الملاحظات الشكلية لا تقلل من قيمة الورقة المعروضة ودقتها ومنطقها المتوازن فى العرض واضافاتها السخية فى المنهج والمعرفة •

الخاتمة :

على الرغم من كل الدعاوى التى تقوم فى وجه اقتراب النظم والتى يمكن أن تضيف اليها الكثير ، كالابهام فى المصطلحات ، وحمى النماذج ، وأخطاء التحليل ، وتفجر التوترات التنظيمية ، وتشويه أهدافنا الحقيقية ، واستعمال مدفع لقتل ذبابة ، والتهرب عن طريق الأرقام ، وقياس ما لا يقاس ، وعقدة الكفاية ••• الخ ، الا اننا لا نستطيع أن ننكر الامكانات التى يكشف عنها استخدام هذا الاقتراب الفعال على تزويدنا بالمفاهيم والأدوات التحليلة والتقنيات الادارية ، والتى نستطيع عن طريق امتلاكها وتطبيقها ببصيرة وحذر ، أن نقدم تطويرا حقيقيا لعلومنا الاجتماعية • وفى هذه الحدود يصبح من المهم الاشارة الى بعض السبل الكفيلة بترشيد استخدامنا لاقتراب النظم وتنشيطه :

- تدارس اقتراب النظم فى مصادره الأصلية واضافاته المتجددة دوما وعدم التعديل على النقل الحرفى لنماذج منشقة •

- الحذر من تطبيق نماذج واجراءات النظم (الانساقى) بدون تعديل فى كل المسائل والميادين ، وعدم اقحامها فى كل الموضوعات بلا دراية أو حذر ، وان يكون العالم الاجتماعى واعيا بحدود ما تقدمه النماذج والاجراءات والطرق التى يستعيرونها ، ونسبية تطبيقها ، وجوانب القصـــور الذاتى بها • فان تطبيقها - قبل اجراء التعديلات - قد يتضمن قدرا من الخسارة •

- عدم الافراط الزائد فى استعمال الأســاليب والصيغ الرياضــية ولكن هذا لا ينفى أن هناك مواقف ومشـــكلات تطبيقية وعمايــة تتطلب استخدام اجراءات رياضية غاية فى التعقيد لذلك يحتاج العالم أو الباحث الاجتماعى الى التحقق من قصـــور مناهج النظم الـكمية من أن تحـل له المشكلات • وبنفس الدرجة من الأهمية يتوافر الاقتراب النظم عدد كبير من المناهج والتقنيات يمكن أن تساعد فى عمليـــات التنبؤ والتعامل مــع المسائل المجهولة وغير المؤكدة ، والتى قد لا يتيسر تحديدها كميا ، وتزداد الظواهر الذاتية فيها ، ذلك رغم اتسامها بالشكل النظمى وامكانية بحثها منطقيا وتجريبيا •

- تجنب الاستغراق المسبق الزائد فى النماذج والطرق والاجراءات والمصطلحات كل منها كهدف فى حد ذاته •

وبالنسبة للعالم الاجتماعى فان المبادىء والعمليات والبناء العقلى أو طريقة التفكير التى يستخدمها العاملون بأسلوب النظم فى أنشطتهم العلمية والتطبيقية الأمور الأكثر أهمية لهم • وينبغى أن تحرص على عدم التورط فى جدول معرفى ومناقشات طويلة لا طائل من ورائها وعليهم أن يبادروا الى تنفيذ طرق النظم فى مجالات عملهم تنفيذا فعليا •

- السعى نحو تقليل المقاومة الطبيعية نحو أفكار وتقنيـــات النظم والاستفادة من المعرفة النظمية المتراكمـــة مع تبسيطها ودراسة جـوانب المقاومة واحتوائها •

- تنشيط واسراع حركة النقـــد والتقـــويم العلمى لاقتراب النظم وطرائقه بشكل منهجى فعال وعميق ٠

- قيام دعوة لدراسة وبحوث بينية نظمية Interdisciplinary Systems بين التخصصات والفروع العلمية داخـــل عائلة العلم الاجتماعى أو العلم الطبيعى أو بينهما معا ، ولعل دراسات علم المستقبل أحد الميادين المرشحة لتجميع هذه الرؤى الابداعية الشمولية الجديدة ٠